الفصل الثامن والعشرون

ركوب الموجة للغد

قبل سنوات خلت قدم الجغرافي بيتر هاكيت (الفصل ١٩) صورة مشرقة للجغرافيين حيث شبههم براكبي موجة تأخذهم من الماضي عبر الحاضر لتنقلهم إلى المستقبل. وهذه صورة مثيرة وجريئة في ظروف بيئة غير مستقر ويتطلب التحدي فيها الأكثر والأفضل، المشكلة الوحيدة في هذه الصورة ان جميع الجغرافيين الذين يركبون الموجة يديرون وجوههم إلى الوراء لينظروا إلى الماضي وليس إلى الأمام (المستقبل)، كان اهتمام هاكيت منصبا لتوضيح الفرق بين فهم ما يحدث ومحاولة لتوضيح وتحديد ما سيأتي.

ولما كانت الصورة مشرقة فان العديد من الجغرافيين قد غير منحاه بسبب تصاعد المخاوف من المستقبل. وطبيعي لا يمكن رؤية بعض الاحداث والظروف لأسباب عملية، لذا هناك القليل الذي يمكن القيام به حتى وإن كنا نعرف بانها ستحدث، فعلى الرغم من جميع المحاولات لتوقع الهزات الأرضية والزلازل وإستخدام تقنيات متقدمة وأجهزة متطورة إلا أنها لا زالت أحداثا تقع دون توقعها بدقة. ولعل أفضل التوقعات، الى يومنا هذا، تتم بمراقبة السلوك غير الطبيعي للحيوانات، وهذا يعتمده الصينيون.

وأتسائل، ماذا يحدث لو أعلن في سان فرانسيسكو أنه باحتمال (٥٠٪) سيحدث زلازل خلال العام القادم: هل سيبدأ الناس بالانتقال من المدينة؟ أم إن الاشياء ستبقى كما هي؟

الحدث المأساوي الآخر الذي له صلة بالإضطرابات على مستوى الكرة الأرضية هو استبدال المياه الباردة قرب سواحل بيرو وإكوادور بمياه مدارية دافئة تسمى EL Nino والتي يبدو أن لها علاقة بالتبدلات الجوية على مستوى العالم، وإن لها تأثير على مناطق الضغط العالي والواطئ على أمريكا الشمالية، وفي الوقت الراهن، ليس هناك من طريقة لتوقع هذه التبدلات وبالتالي ليس بامكاننا فعل شيء.

وحتى في الجانب الستري حيث نعتقد بان الفرص الممنوحة لنا أفضل كثيرا في تحديد الاحداث المتوقعة. لدى العديد من الناس احساس بالاحباط في هذا المجال، وكما لاظنا في الفصل (٢٣) فان المحاولات الخيرة لنقل التموين الغذائي الى منطقة السهل حيث المجاعة فان هذه المحاولات قد استغلت من قبل الجشعين والأنانيين والإدارة البيروقراطية، وبعد تلك المجاعة بسنوات قليلة حدثت مجاعة مماثلة في اثيوبيا اهلكت البشر والحيوانات، وجرت محاولات دولية كبيرة لنقل الغذاء من أمريكا ووفر السوفييت وسائط النقل. ولأولئك الذين ينكرون وجود مشكلة سكانية في العالم نوجه السؤال التالي: لماذا لا ينتج السكان هناك ما يحتاجونه من طعام؟ وقد يتباكى بعض الخرافيين مطالبين بالمساوات السكاني والكفاءة الذاتية للأقاليم لإعالة مواطنيها ولكن كيف تبدأ المشكلة وكيف ستنتهي؟ بالامكان الاشارة إلى اماكن عديدة حيث تأخذ الاحداث مسارها وتكون مسألة توجيه هذه المسارات مشكلة معقدة يحس الانسان بالعجز أمامها.

وعلى الرغم من التعقيد والإهمال والإحساس بالإحباط الذي ينتشر واسعا إلا أن هناك العديد من الذين أخذوا ينظرون إلى العالم بعيون ومفاهيم جغرافية مما جعلهم يبدأون بالتعاون كل بطريقته الخاصة ويوجه لوحة التزلج للأبتعاد عن الصخور المرجانية. ويجلب الوقت المفاجئات دائماً، فنحن بشر ولسنا آلهة، ولا نتمكن من غور أعماق المستقبل، بالمقابل فان خاصية النظرة الجغرافية لا ترتبط بالزمان فحسب بل بالحيز Space ايضاً.

وليس الحيز هنا كسلة مهملات ترمى بها الأشياء، بل حيز (مجال) بشري بتركيبته وتنظيمه، هذا الحيز الجغرافي تشكله المعاني الأنسانية التي يرى من خلاله التتابع التاريخي للإنسان، وذات الحيز سيحدد مستقبله.

إن حركة المجتمعات عبر الزمن تناظر (الحوار) مع الحيز الجغرافي الذي شكلته ذات المجتمعات في الماضي والذي يمثل واقعها الراهن ويحدد حركتها في المستقبل.

ان التنظيم الانساني للحيز الجغرافي له ثبات تاريخي لا يسمح لنا تغيره إلا ببطء نسبي. وبعيدا عن الحرب الذرية أو خروج مذنب من مساره في الفضاء فان الكرة البيضاء والزرقاء التي نسميها وطننا سوف تكون خارطتها الجغرافية للغد مشابهة لما هي عليه اليوم، بغض النظر عن النظم السياسية والمذاهب الفكرية والصراعات الدينية التي شكلت التركيب المكاني تاريخيا. ومن حسن الطالع، ان بعض الاشياء ثابتة نسبيا ولا تدخل ميدان

المفاجئات كليا. ففي حقل الجغرافيا لا زالت الفرصة مفتوحة أمامنا لتشكيل الأشياء ببطء وبروية من أجل مستقبل انساني افضل.

وكما لاحظنا في صفحات هذا الكتاب فان النظم الطبيعية، المعيشية والبشرية معقدة سواء في الحيز المكاني ام الزماني، وإذا انتقلنا بتفكيرنا على طول التتابع الطبيعي- المعيشي- البشري نجد ان درجة التعقيد تزداد بطريقة مضاعفة. بعبارة اخرى، في النظم الطبيعية تأخذ المسارات شكلاً هندسياً في الحيز المكاني والزمني، وليس هناك من ينكر أن هذه النظم معقدة بدرجة كبيرة وإنها اخذت اكثر من (٣٠٠) عام من التفكير العميق لمعرفة جزء من قصتها ولكن، وعلى الأقل فان الهندسة الزمانية والمكانية لهذه النظم مستقرة، أو إنها تبدو لنا كذلك، وطالما نحن جزء من هذه الكونية فكيف يتسنى لنا الوقوف خارجها لمعرفة فيما إذا كانت تتغير أم لا؟

مع هذا، وبانتقالنا عبر الاستمرارية الطبيعية- المعيشية. البشرية لم تبق الاشياء عيدان حطب واحجار ولكن اشياء حية لها قابلية التنظيم وأخذ اشكال هندسية تتوافق مع ما يحيط بها، في البدء لم تحدث هذه بطريقة واعية ودون أن تعكس شيئا ما وبدون تفكير مسبق، ولكنها وبالتأكيد ضمن برنامج انتاجي محدد. مثال على هذا الصخور المرجانية وخلايا النحل وأعشاش النمل ومسار الطيور في هجرتها وهي جميعا عوالم مرتبة للعيش المنظم. وعندما ننتقل للنظر إلى أنفسنا نجد الإنعكاس الذاتي والتفكير المسبق بتشكيل المحيط وتنظيمه هندسيا، ليس في الجانب العمراني فحسب بل والإجتماعي والسياسي والإقتصادي وغيرها من المجالات الهندسية الأخرى، نحن الذين نقوم بتنظيم الأشكال الهندسية، الأشكال التي لها قابلية للتغيير مستوعبة الحيز الجغرافي المتعدد الأبعاد.

ولما كنا مخلوقات قادرة على التفكير فيجب ان يكون عملنا متقنا ويأخذ بالحسبان أن الكوكب الذي نعيش عليه والذي نعده وطنا لنا، فهو الشيء الوحيد المتبقي لنا، وهذا الشيء يدركه الجغرافيون ويتعاملون معه بصبر ودراية فائقة.

يتباين الجغرافيون في طريقة تعاملهم مع البيئة كما يتباينون في القدرة والرغبة في تحمل المسؤولية. فالبعض وبادراك عميق للأرث يشيرون وباستمرار الى الظهير الأرضي الذي تشكل من خلال عمليات التجوية والامواج والفيضانات والعواصف، وعلى هذا الظهير تطفو نتاجات الأنسان التي نسميها الميادين الحضارية مثل الطرق، المباني، الجسور وغيرها مما صنعت يد الإنسان وفكر به عقله، وقد إنغمس عدد آخر من الجغرافيين بعمق

الحوائط التاريخية)ولتسميها الجغرافية) للصيانة والحفاظ على الموجود والآخر وبقدرة ناصبه يحاول تبسيط الواقع بمدجنه وكتابة برامجيات للحاسبة للقيام بتجارب مشتقا بعبر ب محددة لتنتج الاحتمالات الكثيرة التي اصبحنا ندركها والتي تعبر وتمثل النسيج سني الانساني المتداخل. ويعمل البعض الآخر في التدريس مركزين اهتمامهم على تعليم الطلبه ومن مختلف الأعمار بدء من الاطفال في دورالحضانة الى طلبة المدارس المسائية وسائر الموضوعات التي يركزون عليها. من حقائق عن النظم الطبيعية والتلوث الى جمال الظهير الحصري انقديم المحيط بالكنائس وساحاتها. الى اشتقاق او صياغة رياضية أو نظريه نرى من خلالها التنظيمات والترتيبات الداخلية للأشياء، وبدون معلمين، كيف يتسنى لنا ان نعرف وأن تتكون عندنا سبل الأدراك ورؤية الاحتمالات المتوقعة، مع هذا فالتعليم مهنة احاديه والفرد لا يعرف تأثيرها مباشرة ولا يدرك مدى تأثيرها على المستقبل وسواء أكان عمل الجغرافي في التعليم او الكتابة والبحث أو المهام الاستشارية فان الجغرافي الحقيقي سشخص قادر على استيعاب الحياة ولربما يقوم بتشكيل الحيز الطبيعي والبشري لكوكبنا بما يحقق مستقبلا انسانياً زاهرا

لقد شاهدنا بعض هده المحاولات في هذا الكتاب. وتراوحت بين الاهتمام بالتنميات الحصرية والإقليمية مرورا بانتشار الافكار والامراض الى استنباط الاشياء وترتيبها بما يعكس داخلها لتشتق منها الأفكار والنظريات.

في هذا المجال الإنتقاني الواسع هناك دوما طرقا للتبرير. فهل نركز الاهتمام على منطقة صغيرة لنعرف عنها الكثير أم نحلق حول الأشياء ونأخذ بخفة ما يحلو لنا من هنا وهناك؟ إنه ضغط ثقيل للعيش في عالم يكون التخصص فيه متميزا في فصل الأشياء عن بعضها. وفي بعض الاحيان نسيان كيفية اعادتها مع بعض لتشكل الكل الذي جاءت منه. نحتاج جميعا إلى معرفة واكتشاف طرقا جديدة لرؤية الاشياء في عالمنا الساحر.

هناك طرقا عديدة في الجغرافيا للنظر للأشياء، وأفضلها تستبعد العالم الجغرافي المحيط بنا. وأفضل جواب يرد على لسان الإنسان عند أخذه المنهج الجغرافي في التفكير والتحليل هو «لم لم أفكر بهذه الطريقة من قبل» إنها الخبرة القديمة حيث تظهر اشياء كانت مخفية، وحيث تكون الأشياء الغامضة واضحة للعيان والإستيعاب.

وعند الجغرافيين كما هو الحال عند غيرهم فان لحظات المعرفة والاستيعاب قد تأتي في أية لحظة، وفي الغالب عندما لا تكون متوقعة ومن أي اتجاه من المعلومات والأفكار

والمذاهب، الجغرافيا اليوم مليئة بالأيزمية Isms، مع هذا فان لكل منها طريقته الخاصة به ويضم شروطا احتمالية تجعلنا نرى ابعد مما كنا عليه قبلاً. وتدور حول الجغرافيا دوامات فكرية عديدة مثل فلسفة كانت Postivism وكارل ماركس والإنسانية والذرائعية Pragmatism، الكمية، النوعية وغيرها مما أدى في لحظات ضعف معينة أو إنشغال الى استلابها وحملها بعيدا من خلال سيادة نظرة معينة أو اسلوب محدد. ومن النظرة القريبة إلى فقدان الرؤيا كما جاء في الشعر (في المقدمة) ومن زمن إلى آخر أخذت الجغرافيا المبادأة واصبحت رشيقة وقوية ومسيطرة، مملوءة بالصراع والثرثرة وما هو كاف، وجاء الاهتمام بالمعرفة الحقيقية وبقي البعض يبكي الأيام الخوالي، وسوف تجف دموع البعض الآخر وسيساعدنا هذا مرة أخرى، وليبق كارل ماركس في تبجحه وعنفوانه كما هو El Barbo في جدله حول عالمه الخاص، ومع المؤهلين لا زال هناك الذين يدعون للأستشاره ويحملون حقائبهم دوما، فليس أمامنا خيار إلا ان نجذب هؤلاء من أربطة العنق وندفعهم لركوب الطائرات والسفر الى شاطئ الحقيقة مرة أخرى.

وهكذا انطلقت جغرافيتنا الجميلة ورأسها مرفوع عبر مسار الحيز- الزمن المملوء بالمعوقات لتتجاوزها وتشتق من شجرة المعرفة يرافقها تركيب السفينة الجيد ومعرفة متغير الرياح الذي أختبر بطائرات ورقية بتصميم حديث. لديّ احساس بأنهم سيتذوقون نتائجها حتى وإن وقعت التفاحة على القمة. فهل سيتعلمون عظمتها؟

دار الكندي للنشر والتوزيع
اربد –الاردن تلفكاس ٢٤٤٣٢٣